القسم السابع :

فرنسا ومستعمراتها

الاعتـــداء على الجزائر

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

« يا ويلاه ! إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست وحدها العائق الذى يعترضنا فى الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا نفسها كثيراً ما تكون حرباً علينا » « فاوست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الإسلامى وسائر أمم الأرض أن فرنسا اعتدت بلا مبرر ، بل بسبق إصرار وتربص على حرية الأمة الجزائرية ، وكان ذلك بغير إعلان حرب ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها فى يوم ١٩ يونية سنة ١٨٣٠ عند المصباح فى مرسى سيدى فرج ، حيث انسحبت قوات والى الجزائر من البرج القائم حقناً للدماء وإبقاءً للتصدى أمام طوفان الفرق التى جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربى .

هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً فى ذكريات كل فرد منا ، مهما كانت ثقافته ومهما كانت آماله ، ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم بالاحتجاج على هذا العدوان ، وأن تنصت السموات العلا إليهم ، وتستمع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد لهم يقفون دقائق معدودة تحية للمجاهدين والمقاتلين الذين جادوا بأرواحهم دفاعاً عن حريات الأمة الجزائرية فى كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ويرد إليه حقه ، وإلى أن تعود الحياة والنور إلى الشعب الجزائرى على الثرى الذى حمل أمجاده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا للحوادث التى تمخض عنها من ضياع استقلال تونس ومراكش ، ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنيات عديدة ، ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهودة ، وإنما كان

فإذا كانت المعرفة العلمية قاصرة عن الإحاطة بغير المحدود على زعمه فيجب أن يكون هناك سبيل إلى الشعور به من غير المعرفة العلمية ، وهو سبيل الإيمان

والمسألة ليست من البساطة والسهولة بحيث يقول الأستاذ مظهر إن علم التطور « أثبت أن الإنسان نتيجة مترتبة على النواميس القديمة الأزلية وأن حدوثه ليس أكثر من توليف جديد حدث فى جواهر المادة »

فكيف أثبت علم التطور أن الإنسان توليفة جديدة فقط حدثت فى عالم المادة ؟

هل أثبت علم التطور حتى الآن علة الفرق بين أصغر الخلايا الحية وبين الذرة المادية ؟

وإذا كان علم التطور لم يثبت ذلك فكيف يجزم بالرأى فى حقيقة الإنسان كله وهو أعلى ما شهدناه من ظواهر الحياة ؟

وإذا كان علم التطور قد أثبت ذلك فلماذا لا يخرج لنا خلية حية تنشطر وتلتئم وتتوزع وتتجمع وتدخل فى الرحم بدلا من خلية الإنسان أو خلية الحيوان فينشأ منها مولود جديد على مثال أمه وأبيه ؟

إن أجهل همجى لهو أصدق شعوراً بالعالم من الفيلسوف العصرى الذى يحصر مسألة الحياة هذا الحصر المعيب . لأنه على الأقل يدرك للكون عظمة ورهبة تخفيان على الفيلسوف الذى يظن أن الآزال والآباد كانت فى انتظاره حتى يظهر فى سنة ١٨٠ أو ١٩٠٠ أو ٢٠٠٠ فيضع الكون كله فى تلك العلبة الصغيرة ويغلقه هناك بالمفتاح الأخير

على أننا ندع الخوض فى هذا الغمار فقد عرفنا كيف كان وقوف الأستاذ مظهر على الشاطىء بين الماء والرمال ، ونرجع إلى المصطلحات والنقود فلا نزيد على ما تقدم إلا أن نرجو الأستاذ ومن ينقدون على غراره أن ينقدوا بعد أناة طويلة . فقد تبين مما تقدم أننا لم يفتنا شىء مما يقع فى خواطرهم ، ولكنهم هم قد يفوتهم شىء كثير مما توحينا ...

عباس محمود العقاد

محنة إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجمودهم وتفرق كلمتهم . لقد كشفنا هذا العدوان الفرنسي أمام الدنيا وشعوبها . كنا قوة تخشاها أحداث الزمن ، فإذا نحن لا شيء . كان العالم يحسب ألف حساب للروح التي تفيض حماسة وقوة ورفعة ، تلك الروح التي أفرغتها تعاليم الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح لا وجود لها ، إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا حمل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم ، وكان عبئاً ثقيلا عليهم . حقا إنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، ولكن للطاقة البشرية حداً ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا في النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديرة بالبحث والتحقيق ، نقول ماذا دهى العالم الإسلامي وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التي عهدناها في التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور ملأها الإيمان ، لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن ، وإنما تقوم للأحداث وتقعد . أين ذهبت تلك الحيوية التي كانت تتبع الرادفة بالرادفة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا ، وتواجه بصدور أهلها طوفان الحوادث فتعلو عليه والنصر من كل جانب يواتيها ؟

ولقد افتتحت هذا المقال بجملة من فاوست قالها جوته الشاعر الألماني ، وهي تلخص حال المسلمين في افتتاح القرن الماضي ، إذ كانت قد خفتت منذ سنوات وقرون أصوات المعارك الزاحفة ، وانهدت صروح الممالك القوية ، وتفككت عرى الدنيا الإسلامية حينما أطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التي كانت عامرة أنقاضاً ، وهبط عدد المسلمين في مصر وفارس وسوريا والمغرب ، وضعف شأن المسلمين في كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان التي وصلت جحافلها إلى قيينا مرتين ، ثم إذا هي تواجه الهجمات المتتالية في جبهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماتة ؛ فمن كان بوسعه أن يخترق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الأعظم بثلاثة قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وأوزاره كانت نتيجة للأخطاء التي ارتكبها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم؟

لم يبق من شك في أن الحروب التي شنها سليم الأول على مصر وإيران أضعفت الكيان الإسلامي كقوة فعالة ، ولا سيما إذا حللنا على ضوء المنطق الأسباب التي دفعته إليها ، فقد كانت مشاكله مع الدولتين من الأمور التي كان بوسعه حسمها بدون أن يتورط في معارك مع دول إسلامية هي بطبيعتها حليفة له . فكان من أثر حروبه أن زالت من الوجود دولة مصر التي كسبت الحروب الصليبية في مواجهة أوربا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التي وجهت إلى مصر في سنة ٩٢٢ هـ ، كانت ضربة ضد العروبة والإسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين كان له القام الأول في الدفاع عن أراضيهم وصد أعدائهم ، وسرعان ما ظهرت للعيان فداحة هذا الرزء حينما لم يمض نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع في عدد السكان ، ونقص في العمران الذي كان قائماً بأراضي مصر والشام ، بل إن أثر الفتح العثماني كان شديداً حتى على الحركة العلمية والأدبية التي كانت سائدة بمدارس القاهرة ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطي والمقريزي وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشريعة ، ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الإسلام في العقلية الأوربية نفسها ، فهذه جمهورية البندقية استمرت في علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى . وإنك إذا ذهبت إلى المدينة وزرت قصر الدوجات ، تجد في إحدى قاعات العرش رسماً كبيراً يمثل سفراء إيران بين يدي عاهل البندقية ، إن هذه الصورة توحي بأشياء كثيرة ، فإن هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوج البندقية كان عدواً للأتراك العثمانيين ، فهو يضع في مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدولة العثمانية من المسلمين ، وليس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم من هذه الصورة القائمة حتى اليوم ، درساً وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراكش ، فهي قد عاشت أكثر من ثلاثة قرون في شبه عزلة تامة نتيجة للسياسة العامة التي وضعها سليم بضرورة فرض سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهي سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مراكش المستقلة ، ولم يكن من نتيجتها سوى توالي المحن والنكبات ، وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسي الذي تمثل في الاعتداء على القطر الجزائري الشهيد

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التي أظهرها ملوك مصر ابتداء من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش القفجاق في روسيا ، تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوثنية إلى الاسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح مع أنها كانت قريبة منهم لأنها جاءت لملوك هذه البقاع وفضلت فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء في عنفوان قوتهم فرفضوا الإذعان لسلاطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة في إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها ، وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هو عاجز عن حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدولة العثمانية . وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوزاق الذين خضعوا لها واستأسد حكام موسكو فأصبحوا بعد ضعفهم وخضوعهم لملوك المسلمين أباطرة وقياصرة ، وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر في شمالي رومانيا وفي وسط بلاد المجر كافية لصد جموع أوروبا مجتمعة ، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجبهة شرقاً وظهر عدو جديد هو الروسيا التي أخذت تكتسح الأمارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطىء البحر الأسود الذي عرفته القرون بحيرة اسلامية ؟

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان نهر الفولجا المسلمين وأمراء القرم وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملي بتقوية هذه الأمارات وتشجيعها بدلا من مناوأتها ، فإذا هي أول ضحايا الزحف السكوبي وإذا بالجبهة العثمانية تنهار بسرعة وإذا بمجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار ڤينا إلى عهد حملة نابوليون ١٨١٢ في صد الهجمات المضادة التي شنتها أوروبا . فإذا وقفت في صدها ، عالجها الذئب الروسي الآسيوي مستعيناً بمن كانوا حلفاءها ، لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا . فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب وسياسة سلاطين القاهرة في علاقتهم مع مسلمي الفولجا والقرم ؟ لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً وأكثر انتباهاً .

ولذلك لم تكسب الدولة العثمانية كثيراً في سياستها الإسلامية وجاء اتساع رقعة أراضيها فلم يمكنها من أن تصير دولة متماسكة قوية ومع خدماتها الجلى للاسلام جاء وقت كانت هي وحدها الدولة الإسلامية التي تتلقى الصدمات التي يوجهها أعداء الإسلام وخصومه إلى أممه . وفي غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر الجزائري فإذا القوى مبعثرة والأيدي مغلولة وأراضي المسلمين الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التي نسمعها نحو الوحدة وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن المتناقضات لا تزال قائمة في داخلية العالم الإسلامي، هذه المتناقضات التي أورثتها لنا الأطماع والحزازات والعقد النفسية ، فلنحذر من الوقوع في أخطاء السلف ، لأن هذه الأخطاء قد تكون أكثر وبالا علينا من المصائب والنكبات التي يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هنا وهي : أننا من دعاة حرية الشعوب الإسلامية ولكن مع الإسراع في الأخذ بمدنية القرن العشرين ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعي قومي صحيح مبني على العلم والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جراثيم الفشل وتنتهي إلى نكبات ومحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه القاسية تبنى وتؤسس دعائم المستقبل ، فنحن طلاب حرية وتقرير مصير واستقلال كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية ، ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون ممثلة في ضياع شمال إفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة بين الوحدات العربية والإسلامية تنمو على ضوء التجارب مع الزمن نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ المواصلات وتختفي الأنقاض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي أورثتها لنا أجيال عشنا منها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .

هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر وما لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ؛ فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا لنعرف الدوافع الكامنة وأثرها .

لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت إلى أسبانيا عبرت جبال البرانس ودخلت فرنسا بقيادة عبدالرحمن

ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادي نهر اللوار ، ولكن في وسط الوديان الشاسعة بين بلدتي تور وبواتييه ، حيث الروح الخضراء ، التقت جموع العرب لأول مرة مع جموع عنصر أوروبي مقاتل هم الجرمان وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت رحى معركة قال عنها كتاب أوروبا « هي المعركة الفاصلة بين الإسلام وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن » .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة في التهويل والتفخيم أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتيجتها كانت انسحاب العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا وآسيا ، وفي هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام . ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب في صفوف المسلمين أمراء مسيحيين .

لقد شاعت الروح الصليبية السائدة في أوروبا أن تجعل من معركة تور وبواتييه ، ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لا في فرنسا وحدها بل في أسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة القائمة على الكراهية والإفناء سائدة لمدة ثمانية قرون وهي تلاحق العرب حتى صُفيت الشكلة الإسلامية في بحر من الدماء والمذابح في أسبانيا وغادر آخر ملوك غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد انتهت وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح وكانوا في ذلك من الواهمين . لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب في عقر ديارهم ، وقذفت فرنسا التي حكمها العرب وفتحوا ديارها بحملة قوامها أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وحملوها على أسطول عدته أربعمائة سفينة أنزلت مع الحملة مائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات بل تقدمتها محاولات أخرى لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عنتهم وهدموا أحياء منها ، ويذكر التاريخ مثل هذه الهجمات على مدن السواحل الإفريقية كلها حتى مدينة الأسكندرية وبيروت وسواحل الشام أصيبت في عهد الدول العثمانية وقبلها بشيء من هذا العدوان على أيدي قراصنة الأوروبيين .

وبهم ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية وهم أهل المثاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة على السواحل الإسلامية واسترجاع المناطق التي سيطر العدو أحياناً عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهلة هي التي جعلت أمراء المماليك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون ، وجعلت أهل الجزائر يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا في هذا من المخطئين فدفعوا الثمن غالياً بهزيمتهم وموتهم وأضاعوا البلاد من أيديهم .

وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمارك تور وبواتييه إلى الشاطىء العربي وبدأت حرب الموت والفناء تشنها قوة تعتقد أنها تستعيد مجد روما على الرمال التي حملت أعلام روما القاسية ، وتستوحي في قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ومعارك لويس التاسع في إفريقيا ، وهكذا شاءت فرنسا أن نعيش نحن معاشر العرب بأفريقيا الشمالية في غمرات الهجوم المضاد الذي بدأه الجرماني شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك ما يبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره المؤرخون عن حادث إهانة الوالي حسين باشا للجنرال دوفال قنصل فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٤٣ هجرية وما سبق هذا من النزاع على الديون التي ماطلت فرنسا في دفعها لحكومة الجزائر ، والدور الذي لعبه كل من يعقوب كوهين بلري وميخائيل أبو زناك اليهوديين في هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر ، أو إلى محاكم باريس التجارية للفصل فيها ؟ ثم احتجاج القنصل ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن هذا القنصل تعمد إيجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالي حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته فرد عليه أنه ليس من عادة ملك فرنسا أن يكاتب من هو دونه بغير واسطة فأثار بقوله غضب الوالي .

إذ ما الفائدة في تعرف أسباب العدوان بين القوي والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن اختيار الجنرال لبرأسها وهو عسكري إلا توطئة وتحضيراً للأعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة في التاسع عشر من يونية سنة ١٨٣٠ إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة أو إنذار للوالي فأنزلت عساكرها في مرسى سيدي فرج ، وهي بقعة خالية من الناس ، لا تحرسها غير قوة صغيرة من الجنود في برج قائم رأت أن تنسحب بغير قتال حقناً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربي .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا ننسه ، لأنه يحمل ذكريات

العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد .

وبعد مائة عام ، أى فى ١٩ يونية ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم فأثارت بعملها حمية شرذمة من أباة الجزائريين وأحرارهم وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك ، حتى لا يروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل فيه الغاصب ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح والشعب الشهيد ، فلقينى جماعة منهم فى مدينة استانبول ، وذكروا لى مشاهد عما يلقونه من عنت وما صارت إليه أوطانهم ومرابعهم ، وهى البلاد العزيزة التى حملت أعلام المرابطين والموحدين وقبائل المسلمين من العرب والبربر ، وكانت لهم السيادة والقيادة والحول والقوة أيام كانت ترتج أمام أمجادهم وعزائمهم جحافل الفرنجة وتخشاهم الدنيا .

وجاء منهم فريق إلى مصر ، فأمضى أياماً من غير أن يسمع لهم صوت أو أنين ، ولما جاء الفوج الثانى أرجعهم بوليس مصر وشرطة الموانى بحجة أن مصر لم تكن موقعة على جوازات سفرهم . وضحكت من الأيام التى جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات حكومة الاستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم من أقرب الشعوب إلينا وألصقهم بنا ، ومن يحملون تأشيرة مصرية قانونية ، ولا أدرى من الذى لفت الأنظار إليهم ، ومن حال بينهم وبين مصر ، ومن أعطى التعليمات بإبعادهم .

وارتجت مدن الجزائر فى يونية ١٨٣٠ ، وقامت القائمة فيها ، والوالى يجمع جنده ويحشدهم ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو للجهاد والدفاع ، ويطلب النجدة من وهران وقسنطينة ، وخرجت الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين ، فاقتحموا المراكز الأمامية أمام تراجع الجنود الفرنسية ، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية حصدتهم بنيرانها حصداً ، فاختلت صفوفهم ، وأخلوا الأماكن التى احتلوها ، وتقدم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر فى يوم ٢٥ يونية ١٨٣٠

وكانت قوات والى الجزائر محتشدة داخل حصون فى ناحية أبى جارية ، فخرجت منها للقتال والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين فلم تصبر على النيران ، وارتدت وأخلت هذا المعسكر فاحتله العدو ثم تقدموا منه واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدأوا حصارها .

وبعد أيام أخذوا فى إطلاق نيران المدفعية فأصابت قذائفها برج مولاى الحسن وكانت فيه مخازن البارود . فأصابتها قنبلة سببت انفجاراً هائلا ، فاندك البرج على من فيه ، وتطايرت حجارته ، وتهدمت عدة منازل ومات خلق كثير تحت الأنقاض

وبهذه النائبة اهتزت أركان المدينة وفقدت روح المقاومة واستولى الرعب والقلق على السكان فقرر الوالى تسليم المدينة .

وفى صباح يوم ٦ يولية ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد وأزالت الأعلام العثمانية من القصبة والأبراج ورفعت الرايات الفرنسية واحتلت الجنود القصبة والقلاع والشواطىء وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التى أمضت فرنسا السنين تحلم بوضع اليد عليها بعد أن فقدت أملاكها فى الهند وأميركا وجزائر المحيطات ، ولم يرد فى ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق الأهالى وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعمارى الذى وضعه نابليون فى مصر وهو : احترام الديانة المحمدية وعدم التعرض لنساء المسلمين .

وهو النص الذى ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه فى كتبهم وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون وماذا يريد المسلمون وقد تركنا لهم حرية التدين وحفظنا لهم أعراضهم ، كأن حياتهم وقف على هذا لا تتعداه أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم أمور الدنيا فلا تهمهم العاجلة ما داموا قد ضمنوا الآجلة وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائبة المشارق والمغارب وكانت من أعظم النوائب . والحقيقة أن العالم الإسلامى الذى عهدناه يهتز لما يحدث فى كل ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا لما تلاها من نكبات وإنما تحرك القطر الجزائرى وحده أمام العدوان وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم وانضموا تحت لواء الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب القاسية ، فى تاريخ الإسلام الذى واجه الحقائق وقال :

« لقد تبينت ما قدر على وها أنذا مستعد للاقدام » .

ولكن بعد مضى قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ويرددون هذا القول لقد عرفوا وتبينوا ما كتبته لهم الأقدار فهل هم على عهد الإقدام قائمون ؟

هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى فى القسم التالى ما كان من هذه الواقعة الخالدة

أحمد رمزى